مذهبه أيضاً رواية أنه يزيد بعدها لا إله إلاّ الله والله أكبر ولله الحمد . ومذهب أبي حنيفة الله أكبر الله أكبر لا إله إلاّ الله والله أكبر . ومذهب الشّافعيّ : الله أكبر الله أكبر الله أكبر . لا إله إلاّ الله والله أكبر . ولله أكبر ولله الحمد[1] .

فمن تعجّل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى . كان بعض الجاهلية يعتقد أن من تعجّل أثم . وبعضهم يعتقد أنّ من تأخّر أثم . فلذلك أخبر أنّ الله رفع الإثم عنهما ، إذْ كان التعجّل والتّأخّر ممّا شرعه الله تعالى[2] خرّج الدارَ قطنيّ والتّرمذيّ وغيرهما عن عبد الرّحمن بن يَعْمَر الدّيلي أنَّ ناساً مِنْ أهل نجد أتوا رسول الله ﷺ وهو بعرفة فسألوه فأمر منادياً فنادى : الحجّ عرفة . فمن جاء ليلة جَمْع[3] قبل طلوع الفجر فقد أدرك أيّام منى الثلاثة . فمن تعجّل فى يومين فلا إثْم عليه ومن تأخّر فلا إثم عليه أى من تعجّل من الحاجّ فى يومين من أيّام منى فصار مُقامه بمنى ثلاثة أيّام بيوم النّحر ، ويصير رميه بتسع وأربعين حصاة ، ويسقط عنه رمي يوم الثالث . ومن لم يَنْفِر منها إلاّ فى آخر اليوم الثّالث حصل له بمنىً مقام أربعة أيّام من أجل يوم النّحر ، واستوفى العدد فى الرّمي[4] وأجمع العلماءعلى أنّ يوم النّحر لاتُرْمي فيه غير جمرة العقبة ، لأنّ رسول الله ﷺ لم يرم يوم النّحر من الجَمَرات غيرها . ووقتها من طلوع الشّمس إلى الزّوال . وكذلك أجمعوا أنَّ وقت رمي الجمرات فى أيّام التّشريق بعد الزّوال إلى الغروب[5] والتّرتيب فى الجمار واجب ، فلا يجوز أن يشرع فى رمي جمرة حتّى يكمل رمي الجمرة الأولى كركعات الصلاة . هذا هو المشهو من المذهب[6] والرّمي يبدأ بالجمرة الصغرى وينتهي بجمرة العقبة أو الكبرى .

وقد نصّ على تقوى الله تعالى فى القول « لمن اتقى » والمعروف أنّ التقوى ثمرة الحج إلى بيت الله تعالى الحرام الشهيّة . ثمّ أكّدت التقوى فى القول : « واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون » . والحشر : جمع القوم من كلّ ناحية[7] يقول الراغب[8]:

---

(١) انظر البحر المحيط ٢/١١٠ وتفسير القرطبي ص ٨١٢ .
(٢) البحر المحيط ٢ / ١١٢ .
(٣) جمع هي المزدلفة .
(٤) تفسير القرطبي ص ٨٠٩ .
(٥) تفسير القرطبي ص ٨١٢ .
(٦) تفسير القرطبي ص ٨١٤ .
(٧) البحر المحيط ٢ / ١٠٨ .
(٨) البحر المحيط ٢ / ١٠٨ .

الحشر ضمّ المفترق وسوقه . والملاحظ أن التذييل فى الآية الكريمة الأخيرة ينصّ على الحشر إلى الله تعالى يوم القيامة . والمعروف أنّ من أهمّ مظاهر الحجّ إلى بيت الله تعالى الحرام أنّه بمثابة حشر أصغر إلى الله تعالى . وما أشد الشبه وأقوى العلاقة بين النّوعين من الحشر ، الحشر الأصغر فى الحجّ . والحجّ الأكبر إلى الله تعالى يوم القيامة ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلبٍ سليم . إنّ الآيات الكريمات تختم بتنبيه النّاس إلى أخذ العظة والعبرة من الحشر الأصغر دليلاً على الحشر الأكبر . ويقول ابن كثير(١) : « ولمّا ذكر الله تعالى النّفر الأوّل والنّاس وهو تفرّق النّاس من موسم الحجّ إلى سائر الأقاليم والآفاق بعد اجتماعهم فى المشاعر والمواقف قال : واتقوا الله واعلموا أنكّم إليه تحشرون . كما قال : وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون » .

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٢٤٥ .

مؤمنون ومنافقون وكافرون

الآيات : ٢٠٤ ٢١٤

﴿٢٠٤﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ

تحدّثت الآيات الكريمات من ذى قبل عن فريق من الناس الذى يقول : « ربنا آتنا فى الدين حسنة » وهم الكافرون الذين لا يهتمون بغير الحياة الدّنيا التي تعتبر منتهى همهم ، وعن الفريق المقابل من الناس الذى يقول : « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » فهؤلاء المؤمنون يسألون الله تعالى الحياة الطيبة فى الدّنيا والآخرة . وبقى الحديث عن الفريق الثالث المنافق الذى يظهر الإيمان ويبطن الكفر ، وهو الذى عنته هذه الآية الكريمة .

إنّ ثمّة فريقاً من الناس ، وهم المنافقون حينما يتحدّثون تُعْجبك أقوالهم المعسولة ، وترضيك أحاديثهم التي تسيل رقة وعذوبة . وهم إنّما يريدون بتلك الأقوال وهذه الأحاديث زهرة الحياة الدنيا وزينتها ، ولهذا بيّنت الآية الكريمة أنّ قولهم إنما هو فى الحياة الدّنيا ، وذلك على غرار طلب الفريق الأوّل الكافر أن يؤتيه الله تعالى فى الدّنيا . ويصحّ وراء ذلك أن يتعلق « فى الحياة الدنيا » ب « يعجبك » فهذا الحديث وان كان فى مجموعه فى الحياة الدنيا فهو مستحوذ على إعجابك فى هذه الحياة الدّنيا ولا يعجبك فى الآخرة . وهذا المعنى يتعلق بسبب بمثل قوله تعالى فى سورة المجادلة(١) : « يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنّهم على شىء ، ألا إنّهم هم الكاذبون » وقوله تعالى(٢) : « يوم يبعثهم الله جميعاً فينبّئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه . والله على كل شىء شهيد » .

إنّ الواحد من أولئك المنافقين يُشْهِدُ الله تعالى على ما فى قلبه قائلاً : إنّ الله تعالى يَشْهَدُ بأنّ ما فى قلبي موافق لحلاوة منطقي وعذوبة كلامي . بينما يشهد الله تعالى أن هذا

---

(١) الآيـة : ١٨ .

(٢) سـورة المجادلة : ٦ .

المنافق لشديد الخصومة للإسلام والمسلمين أو أشد المخاصمين للإسلام والمسلمين « والخصام فى الآية مصدر خاصم . قاله الخليل وقيل : جمع خصم . قاله الزّجّاج ، ككلب وكلاب وصعب وصعاب وضخم وضخام . والمعنى أشدّ المخاصمين خصومة ، أى هوذو جدال . إذا كلمك وراجعك رأيت لكلامه طلاوة[1] وباطنة باطل »[2] .

ثبت فى الصّحيح عن رسول الله ﷺ أنّه قال : آية المنافق ثلاث ، إذا حدّث كذب . وإذا عاهد غدر . وإذا خاصم فجر . وقال البخاريّ : حدّثنا قبيصة ، حدّثنا سفيان عن ابن جريج عن ابن أبي مليكة عن عائشة ترفعه ، قال : إنّ أبغض الرّجال إلى الله الألدّ الخصم[3] .

---

(١) بتثليث الطاء ومعنى الطلاوة الحسن .

(٢) تفسير القرطبي ص ٨٢٤ .

(٣) تفسير ابن كثير ١ / ٢٤٦ .

﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ

إنّ ذلك الذى يعجبك يا محمّد – وأمتّه ﷺ تبع له فى الخطاب – قوله فى الحياة الدّنيا ، بينما هو ألدّ الأعداء للإسلام ، إذا انصرف عنك يا محمد وذهب معرضاً ، انطلق فى أرض الله تعالى لا يَلْوى على شىء ، محاولا جهده الإفساد فى أيّ بقعة حلّ فيها ، حريصاً على إهلاك الزروع والضروع وكل ذى روح . ومعروف أن الحرث والنسل قوام عمارة الدنيا ، وفى إهلاكها قمة الافساد . لقد نصّت الآية الكريمة على أنَّ الله سبحانه وتعالى لا يحب الفساد ، بمعنى أنه جل وعلا لا يرضى بالخراب ولا المعاصى ، ولكنه جلّ وعلا يحب الصلاح والطاعات ويباركها .

﴿٢٠٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ

إنّ هذا المنافق الذى إذا تولّى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، حينما يقال له اتّق الله ، ومعروف أنَّ تقوى الله تعالى أمِر جلّ وعلا بها كل عباده ابتداءً بخاتم الأنبياء والمرسلين قال تعالى(١) : « يا أيّها النّبيّ اتّق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إنّ الله كان عليماً حكيماً » وقال تعالى(٢) : « ولقد وصّينا الّذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإيّاكم أنِ اتقوا الله » حينما يقال له اتق الله تأخذه ، وتستحوذ عليه بقوّة ، وتملكه بعنف ، أنفه الجاهلية الحمقاء وحمّيتها الرعناء ، ومن ثَمَّ تحمله تلك العزة على الإثم(٣) .

إنَّ هذا الإثم كافيه معاقبةً وجزاءً جهنم(٤) ولبئس المِهاد ، بمعنى الفِراش هى . وجعل ما اعدّ لهم مهاداً على سبيل الهزء بهم ، إذ المهاد هو ما يستريح به الإنسان ويوطّأ له للنوم . ومثله قول الشاعر :

وخيلٍ قد دلفت لها بخيل تحيّة بينهم ضربٌ وجيع

أي القائم مقام التحية هو الضّرب الوجيع . وكذلك القائم مقام المهاد لهم هو المستقرّ فى النّار(٥) .

---

(١) سورة الاحزاب : ١
(٢) سورة النساء : ١٣١ .
(٣) انظر تفسير القرطبي ص ٨٢٧ .
(٤) تفسير القرطبي ص ٧٢٧ .
(٥) البحر المحيط ٢ / ١١٨ .

﴿٢٠٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ

بعد أن تحدّثت الآيات الكريمات الثلاث السابقات عن المنافق الذى يفسد فى الأرض ويهلك الحرث والنسل والذى تأخذه العزّة بالإثم ، تحوّل السّياق إلى من يقابله فى الصّفات تماماً ، وهم المؤمنون المتقون المجاهدون فى سبيل الله تعالى . ومع أن فريقاً من العلماء ذهب إلى كون الآية الكريمة نزلت أساساً فى صهيب بن سنان الرومي حينما حال كفّار مكة بينه وبين أن يهاجر إلى المدينة المنورة ، فعرض عليهم كلّ ما يملك كي يخلّوا بينه وبين الهجرة فقبلوا المال فهاجر . فلما بلغ ذلك النبي ﷺ قال : ربح صهيب ربح صهيب(١) فإنّ كثيراً من العلماء وراء ذلك حملو الآية على كلّ مجاهد فى سبيل الله تعالى(٢) فالعبرة إذن بعموم اللّفظ لا بخصوص السبب . يقول القرطبي(٣) : « وقيل الآية عامة تتناول كل مجاهد فى سبيل الله أو مستشهد فى ذاته أو مغير منكرى » .

ومعنى الآية الكريمة أنّ من الناس من يبيع نفسه من أجل مرضاة الله وكسب رضاه جلّ وعلا . والله رؤوف بالعباد حيث إنّه حينما فرض عليهم الجهاد فى سبيله جل وعلا أكرمهم بثواب المجاهدين فى سبيله جل وعلا وبمنزلة الشهداء . فمعنى يشرى : يبيع ومنه . شروه بثمن بخس أي باعوه . وأصله الاستبدال . ومنه قوله تعالى : إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة(٤) وابتغاء نصب على المفعول من أجله(٥) أي الحامل لهم على بيع أنفسهم إنّما هو طلب رضى الله تعالى وهو مستوفٍ لشروط المفعول من أجله من كونه مصدراً متّحد الفاعل والوقت(٦) .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١ / ٢٤٧ والقرطبي ص ٨٢٨ والجلالين والكشاف ١ / ٢٦٨ .
(٢) انظر تفسير ابن كثير ١ / ٢٤٧ وتفسير القرطبي ص ٨٢٩ .
(٣) تفسير القرطبي ص ٨٢٩ .
(٤) تفسير القرطبي ص ٨٢٩ .
(٥) تفسير القرطبي ص ٨٢٨ .
(٦) البحر المحيط ٢ / ١١٩ .

فى الحديث الصّحيح فى محاورة أهل الجنّة ربهم تعالى حين يسألهم هل رضيتم فيقولون : يا ربّنا كيف لا نرضى وقد أدخلتنا جنّتك وباعدتنا من نارك فيقول : ولكم عندى أفضل من ذلك فيقول : يا ربّنا وما أفضل من ذلك؟ فيقول : أحلّ عليكم رضائى فلا أسخط عليكم بعده[1] .

(١) البحر المحيط ٢ / ١١٩ .

﴿٢٠٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ

بعد أن تحدثت الآية الكريمة السابقة عن الذين يبيعون انفسهم رخيصة فى سبيل الله تعالى ، أمرت هذه الآية الكريمة المؤمنين وهم ثمرة منهج التربية القرآنية ، أن يدخلوا فى الإسلام كافة ، وأن يأخذوا بكل تعاليم الإسلام وأن يعملوا بكل أوامره وأن يتركوا كل زواجره ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . فالسّلم هنا بمعنى الإسلام قاله مجاهد(١) .

وكافّة معناه جميعاً ، فهو نُصِب على الحال من السّلم ، أو من ضمير المؤمنين(٢) ويقول أبو حيّان(٣) : « وانتصاب كافّة على الحال من الفاعل فى : ادخلوا . والمعنى ادخلوا فى السّلم جميعاً وهي حال تؤكدّ معنى العموم ، فتفيد معنى كل . فإذا قلت : قام الناس كافّة فالمعنى قاموا كلّهم » .

وبعد أن أمرت الآية الكريمة أن يدخل المؤمنون فى الإسلام كافّة ، نهتهم عن اتّباع خطوات الشّيطان ، لأنّه هو العدوّ البيّن العداوة ، الّذى تعهّد بأن يُغْوي كلّ الناس باستثناء عباد الله تعالى المخلصين . نسأل الله تعالى أن يجعلنا من عباده المخلصين . إنّه على ما يشاء قدير .

---

(١) تفسير القرطبي ص ٨٣٠ .
(٢) تفسير القرطبي ص ٨٣١ .
(٣) البحر المحيط ٢ / ١٢٠ .

﴿٢٠٩﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

أصل الزّلل فى القدم . ثم يستعمل فى الاعتقادات والآراء وغير ذلك(١) والخطاب للمؤمنين الذين أمروا فى الآية الكريمة السابقة بأن يدخلوا فى السّلم كافة . إنّهم يُنْذَرون هنا بأنّهم ان تنحّوْا عن طريق الاستقامة وتنكّبوا جادّة الصواب ، من بعد ما جاءتهم الآيات البيّنات الواضحات ، في هيئة القرآن الكريم الذى فيه وحده عزّهم ومجدُهم وسوءددُهم ، والذى أنزله الله تعالى فى أسمى طرق الوحي على خاتم الأنبياء والمرسلين الذى تعتبر سنّته المطهرة ، تبييناً للقرآن الكريم وتوضيحاً ، فإنّ عليهم ان ينتظروا العقاب الأليم ، فى الدّنيا والآخرة إن لم يتوبوا إلى الله تعالى توبة نصوحا . فى الدّنيا فى هيئة الخزى الذى يلازمهم كظلّهم وفى الآخرة فى النار التي وقودها الناس والحجارة والتي أعدت للكافرين . إنّ الله سبحانه وتعالى عزيز فى ملكه لا يفوته شيء . حكيم فى صنعه جلّ وعلا .

(١) تفسير القرطبي ص ٨٣٢ .

﴿٢١٠﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ

هل : يراد به هنا الجَحد ، أي ما ينتظرون إلاّ أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة(١) ولذلك دخلت إلاّ . وكونها بمعنى النّفي إذ جاء بعدها إلاّ كثير الاستعمال فى القرآن وفى كلام العرب . قال تعالى(٢) : وهل نجازى إلا الكفور . فهل يهلك إلا القوم الفاسقون(٣) وقال الشاعر :

وهل أنا إلا من غزّية إنْ غوت غَوَيْتُ وإنْ ترشد غزية أرشد(٤)

وينظرون هنا معناه ينتظرون(٥) نظرته وانتظرته بمعنى . والنّظر الانتظار(٦) وظُلل جمع ظُلّة فى التّكسير كظُلْمة وظُلم . وفى التّسليم ظلمات(٧) والظُّلّة : ما أظلك(٨) .

والغمام : السّحاب الرقيق الأبيض . سمّي بذلك لأنّه يغمّ أي يستر(٩) .

فى الآية الكريمة تهديد لأولئك الذين لم يدخلوا فى السّلم كافة والذين حادوا عن الصراط المستقيم . إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّهم وقد جعلوا متع الحياة الدّنيا الزائلة غاية لهم وهدفاً ، ما ينتظرون إلاّ أن يأتيهم يوم القيامة أمر الله تعالى فى ظلل من الغمام وملائكة العذاب ، فينالوا العقاب الذى يستحقون . إنّ الله سبحانه وتعالى الذى له الخلق والأمر له الحكم وهو أسرع الحاسبين . وهكذا يُقْضى الأمر . وهكذا ترجع الأمور لله تعالى الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . وقد قال تعالى(١٠) : « ويوم تشقّق السّماء بالغمام ونُزّل الملائكة تنزيلاً » وقال تعالى(١١) :

---

(١) تفسير القرطبي ص ٨٣٣ .
(٢) سورة سبأ : ١٧ .
(٣) سورة الأحقاف : ٣٥ ولتصحّح الآية فى البحر المحيط .
(٤) البحر المحيط ٢ / ١٢٤ .
(٥) البحر المحيط ٢ / ١٢٤ .
(٦) تفسير القرطبي ص ٨٣٣ .
(٧) تفسير القرطبي ص ٨٣٣ .
(٨) الكشاف ١ / ٢٦٨ .
(٩) تفسير القرطبي ص ٨٣٤ .
(١٠) سورة الفرقان : ٢٥ .
(١١) سورة النحل : ٣٣ .

« هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك » وقال تعالى[1] : « وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم جرحتم بالنّهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون . وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة . حتى إذا جاء أحدكم الموت توفّته رسلنا وهم لا يفرّطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق . ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين » وقال تعالى[2] : « يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء ، لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار . اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم . إنّ الله سريع الحساب » .

---

(١) سورة الأنعام : ٦٠ – ٦٢ .

(٢) سورة غافر : ١٦ ، ١٧ .

﴿٢١١﴾ سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ

نبهت الآية الكريمة السابقة إلى كون الّذين لم يدخلوا فى دين الإسلام رغم كل الأدّلة والبراهين التي تحمل المنصف الشاكر لأنعم الله تعالى ، على الدّخول فى دين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى ، كأنّهم وقد أعرضوا عن كل آيات الله تعالى الدالة على كون الدّين عنده جل وعلا الإسلام ، « لا ينتظرون إلا آيةً عظيمة تلجئهم إلى الدخول فى الإسلام »(١) ومن هؤلاء الذين لم يدخلوا فى السّلم كآفةً بنو إسرائيل رغم آيات الله تعالى الكثيراً الدالة على صدق محمّد بن عبدالله ﷺ . وها هي ذى الآية الكريمة تأمر المصطفى ﷺ ، وأمّته تبع له فى ذلك ، بأن يسألوا بنى اسرائيل فى هيئة التبكيت والتقريع والتوبيخ ، لأنهم يسألون عن معلوم وليس عن مجهول : كم آتاهم الله تعالى على يد موسى عليه السلام من آية بينة واضحة تدل على صدقه عليه الصلاة والسلام وعلى صدق خاتم الأنبياء والمرسلين كالعصا واليد والتوراة وفلق البحر والغمام والمنّ والسّلوى(٢) ومع ذلك فقد بدل بنو اسرائيل نعمة الله كفراً ، بمعنى أنهم استبدلوا بنعم الله تعالى عليهم كفراً وإعراضا ، إلى الحدّ الّذى كفروا معه برسالة خاتم الأنبياء والمرسلين ومعجزته الكبرى الخالدة .

إنّ الآية الكريمة تقرّر أن من يبدّل نعمة الله تعالى كفرا ، من بعد ما جاءته تلك النعمة – ويلاحظ أن جملة جاء لا تستعمل فى القرآن الكريم إلا دليلاً على القرب ، وهى هنا تفيد معنى وصول النعمة فعلاً إلى الذين بدّلوها كفراً – فإنّ الله شديد العقاب وأخذه أليم شديد .

« وكم هنا استفهامية ومعناها التّقرير لا حقيقة الاستفهام »(٣) .

---

(١) البحر المحيط ٢ / ١٢٦ .
(٢) انظر البحر المحيط ٢ / ١٢٨ . وتفسير القرطبي ص ٨٣٥ .
(٣) البحر المحيط ٢ / ١٢٧ .

﴿٢١٢﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ

تحدّثت الآية الكريمة السابقة عن بنى اسرائيل الذين جحدوا آيات الله تعالى وبدّلوا نعمته جل وعلا كفرا ، وأحلّوا قومهم دار البوار . وهذه الآية الكريمة تتحدّث عن الّذين كفروا ، الذين زُيّن لهم الحياة الدنيا ، وكأنّ الآية الكريمة تبيّن السّبب الذى من أجله جحد بنو اسرائيل نعم الله تعالى عليهم . إنَّ الذين كفروا قد زُيّن لهم الحياة الدنيا لِأنّهم جعلوا هذه الحياة غاية المنى ونهاية المطاف . حقّاً إنَّ الناس جميعاً قد زُيّن لهم الحياة الدنيا ولكنّ الكافرين قد شغلتهم هذه الدنيا عن كل خير متعلق بالحياة الأخرى. وإذا كان النّاس جميعاً قد زَيَّن لهم الله سبحانه وتعالى ما على الأرض . وقد قال تعالى(١) « إنّا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيّهم أحسن عملا » وقد قال ابو بكر الصديق رضى الله عنه حين قدم عليه بالمال : اللّهمّ إنّا لا نستطيع إلاّ أن نفرح بما زّينت لنا(٢) فإنّ الكافرين قد سوّل لهم الشيطان الرجيم وزيّن لهم ، هو وأنفسهم الأمارة بالسوء الحياة الدنيا ومن هنا لم يبق فى أنفسهم موضع لخير .

وبالإضافة إلى انصراف الكافرين إلى الحياة الدنيا هم يستهزئون بالذين آمنوا ويسخرون منهم ، لأنّهم فى مجموعهم فقراء ، ولأنّهم منصرفون عن زينة الحياة الدّنيا إلى الآخرة . لقد كان ينبغي للكافرين أن يبكوا على أنفسهم لا أن يستهزءوا بالمؤمنين . وإنّ ربّ العزة ليدافع عن الّذين آمنوا ، مرشداً لهم إلى الدّرجات العلى التّي ينبغى عليهم أن يعملوا من أجلها وها هي ذى الآية الكريمة فى حديثها عن فضل الله تعالى العميم على المؤمنين ، تنعتهم بأحسن الصفات التي ينبغي أن يتحلّوْا بها وهي صفة التقوى « والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة » وكأنّ الآية الكريمة ترشد المؤمنين المتّقين إلى الطّريق الصحّيح الذى يسيرون فيه ، والّذى ينبغي عليهم أن يستمروا فيه متجهين صعدا من درجة

---

(١) سورة الكهف : ٧ .

(٢) تفسير القرطبي ص ٨٣٧ .

الإسلام إلى درجة الإيمان إلى درجة الإحسان . ودرجة الإحسان هذه هي الوجه الثانى للتقوى .

وما دام المسلمون قد ارتفعوا بفضل الله تعالى إلى مرتبة التّقوى التي تعنى الدّرجة الرّفيعة فى الجنّة ، فإنّ الآية الكريمة التي تتجّه إلى الأعلى والأسمى صعدا ، تتجاوز ما يكافأ به المتقون جزاءً وفاقا ، إلى فضل الله تعالى الذى لا راد له « والله يرزق من يشاء بغير حساب » . ومعروف أنّ فى الجنّة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

﴿٢١٣﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ

مناسبة هذه الآية لما قبلها هو أنّ إصرار هؤلاء على كفرهم هو حب الدنيا ، وأنّ ذلك ليس مختصاً بهذا الزمان الذى بعثت فيه ، بل هذا أمر كان فى الأزمنة المتقادمة ، إذ كانوا على حقّ ثم اختلفوا بغياً وحسداً وتنازعاً فى طلب الدّنيا(١) .

تبيّن الآية الكريمة أنّ النّاس ، منذ عهد آدم عليه السلام ، كانوا أمّةً واحدةً يعبدون الله تعالى وحده لاشريك له ، لأن الدّين عند الله الإسلام ، ولأنّ الإنسان بفطرته متّجهٌ إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له . وقد قال تعالى(٢) « فأقم وجهك للدين حنيفاً . فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها . لا تبديل لخلق الله . ذلك الدّين القيّم ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون . منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين . من الّذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، كلّ حزبٍ بما لديهم فرحون » وهذه الفطرة على درجة كبيرة من الرّقّة والشّفافية ، ولذلك هي قابلة لأن تتأثر وتنحرف عن مسارها بفعل التأثيرات غير السّويّة . ومن هنا يختلف النّاس بعد أن كانوا أمّةً واحدة ، وينحرفون بعد أن كانوا على الصراط المستقيم ، ويختلفون بعد أن كانوا متفقين . وقد أشارت الآية الكريمة بعد ذلك إلى الاختلاف ونصّت عليه . وكذلك نصت عليه آية سورة يونس(٣) : «وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا » .

وبما أنّ النّاس قد اختلفوا فى الدّين بعد أن كانوا أمّةً واحدة دينهم الإسلام ، وقد قال تعالى(٤) : « إنَّ الدّين عندالله الإسلام » فذلك معناه أن ثَمّةَ حاجةً لإرسال أحد الأنبياء لإزالة الاختلاف ولإعادة الناس إلى عقيدة التوحيد الصافية الخالصة ، « فبعث

(١) البحر المحيط ٢ / ١٣٤ .
(٢) سورة الروم : ٣٠ – ٣٢ .
(٣) الآيـة : ١٩ .
(٤) سورة آل عمران : ١٩ .

الله النبيين مبشّرين ومنذرين » والمراد أن الله تعالى بعث النبيين ، وأولهم نوح عليه السلام ، وآخرهم محمد بن عبدالله ﷺ ، مبشرين المؤمنين المتقين الطّائعين بالجنّة ، ومنذرين الكافرين العاصين بالنّار . وقد شاءت العناية الإلهيّة أن يؤيّد النّبيّون بالكتب السماوية . وقد أشار القرآن الكريم إلى أربعة منها ، لا نكاد نعرف عن اثنين منها سوى الاسم وهما صحف إبراهيم وزبور داود عليهما السلام بينما تمكّن التحريف من الكتابين الآخرين وهما التوراة والإنجيل . وإنّما تسرّب التّحريف والتّبديل إلى تلك الكتب ، لأنّ الله تعالى لم يتكفل بحفظ أيّ كتاب سماوى سوى القرآن الكريم الذى جاء فى حقه قوله تعالى(١) « إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون » أمّا الكتب السابقة على القرآن الكريم ، فقد شاءت العناية الإلهيّة أن توكل مهمة حفظها إلى رجال الدين ، الذين اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً . جاء فى حق التّوراة على سبيل المثال ، قولُه تعالى(٢) : « إنّا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والرّبّانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء » .

لقد شاءت العناية الإلهيّة أن توكل مهّمة حفظ الكتب السابقة على القرآن إلى العباد لأنها كتب سماوية ليست معجزةً فى ذاتها وليست متحدًّى بها . وقد نصّت الآية الكريمة على ما نزلت به تلك الكتب إنه الحق . وقد جاء فى حق القرآن الكريم قوله تعالى(٣) : « وبالحقّ أنزلناه وبالحقّ نزل » . وأمّا الهدف من إنزال هذه الكتب بالحق ففي قوله تعالى « ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » والمعنى ليحكم الكتاب بين الناس المختلفين فيما اختلفوا فيه من شئون الدّين .

والعجيب فى الأمر أنّ أوّلَ المختلفين فى الكتب السّماوية السّابقة هم الّذين آتاهم الله تعالى إيّاها . إنَّ هذه الكتب التي أنزلها الله تعالى على النبيّين بالحقّ أريد لها أن تزيل الخلاف الذى وجد بين الناس فى الدّين . وإذا بأولئك الذين أعطاهم الله تلك الكتب من

---

(١) سورة الحجر : ٩ .
(٢) سورة المائدة : ٤٤ .
(٣) سورة الاسراء : ١٠٥ .

الأتباع ، بسبب فطرهم الملتوية ، ونفوسهم الخبيثة ، وعقولهم المتبلدة ، هم أوّل ناس يختلفون حول تلك الكتب فأضيف إلى الخلاف القديم الذى أريد له أن يزول خلاف جديد مستحدث . والعجيب أن القوم قد اختلفوا من بعد ما جاءتهم ووصلت إليهم الآيات الواضحات البيّنات المزيلات لتلك الاختلافات . ومعروف أنّ جملة جاء لا تستعمل فى القرآن الكريم إلا دليلاً على القرب والوصول إلى الشيء وهى هنا بهذا المعنى.

وإنّما اختلفوا من أجل البغي فيما بينهم لحرصهم على الدّنيا وتكالبهم على زينتها وزخرفها « وما اختلف فيه إلاّ الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات » .

وإنَّ رحمة الله تعالى الّتى وسعت كل شيء فأرسلت النبيّين وأنزلت الكتب السماويّة ، قد شملت الّذين آمنوا فهدتهم لما اختلفوا فيه الحقّ إلى الصراط المستقيم وإلى العقيدة الصافية النقيّة من كل شائبة . كلّ ذلك قد تمّ بعلم الله تعالى وارادته . إنّ الله سبحانه وتعالى يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . وقد هدى الذين آمنوا إلى ذلك الصراط المستقيم نسأل الله تعالى أن يهدينا جميعاً الصراط المستقيم ، وقد لقّننا جل وعلا فى سورة الفاتحة هذا الدعاء : « اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضالّين » آمين . فى صحيح البخاري ومسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان قام من اللّيل يصلّي يقول : اللّهمّ ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السّماوات والأرض ، عالم الغيب والشّهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون . إهدني لما اختلف فيه من الحقّ بإذنك . إنّك تهدى من تشاء إلى صراطٍ مستقيم . وفى الدّعاء المأثور : اللّهمّ أرنا الحقّ حقًّا وارزقنا اتّباعه . وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه . ولا تجعله ملتبساً علينا فنضلّ واجعلنا للمّتقين إماماً[1] .

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٢٥٠ .

﴿٢١٤﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ

تحدّثت الآية الكريمة السابقة عن اختلاف أتباع رسل الله تعالى السابقين حول كتب الله تعالى التي أنزلها بالحق على أنبيائه جل وعلا لتحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه . إنّ ثمة الكثير من الصعاب التي صادفها رسل الله تعالى والذين آمنوا معهم ، فليس المصطفى ﷺ بِدْعاً من الرّسل وليس الّذين آمنوا معه بِدْعا من الحواريّين . وها هي ذى الآية الكريمة تنبه المؤمنين بقيادته ﷺ إلى سنّة الله تعالى فى اصطفائه بالابتلاء أنبياءه ورسله فالأمثل فالأمثل من الأتباع المؤمنين . وقد قيل إنّ الآية نزلت فى غزوة الخندق (أو الأحزاب) أو في غزوة أحد أو فى المهاجرين حين تركوا ديارهم وأموالهم بأيدى المشركين وآثروا رضى الله ورسوله(١) .

أم : هنا منقطعة بمعنى بل . وحكى بعض اللّغويّن أنّها قد تجيء بمثابة ألف الاستفهام ليُبْتَدَأ بها(٢) ويقول أبو حيّان(٣) : « وأم هنا منقطعة مقدّرة ببل والهمزة ، فتتضمن إضراباً ، وهو انتقال من كلام إلى كلام ، ويدلّ على استفهام ولكنه استفهام تقدير » .

حسبتم : ظننتم(٤) .

لمّـــا : بمعنى لم(٥) ولمّا فيها معنى التّوقّع . وهى فى النّفي نظيرة قد فى الإثبات . والمعنى أنّ إتيان ذلك متوقّع منتظر(٦) .

---

(١) انظر تفسير القرطبي ص ٨٤١ والبحر المحيط ٢ / ١٣٩ .
(٢) تفسير القرطبي ص ٨٤٢ .
(٣) البحر المحيط ٢ / ١٣٩ .
(٤) تفسير القرطبي ص ٨٤١ .
(٥) تفسير القرطبي ص ٨٤٢ .
(٦) الكشـاف ١ / ٢٧٠ .

ومَثَـــل : معناه شبه ، أى ولم تمتحنوا بمثل ما امتحن به من كان قبلكم فتصبروا كما صبروا . وحكى النّضر بن شُمَيْل أنَّ مَثَلَ تكون بمعنى صفة[1] . ويقول أبو حيان[2] : « والمثل الشبه إلاّ أنّه مستعارٌ لحال غريبة أو قضيةٍ عجيبة لها شأن » ويقول الزمخشرى[3] : « مثل الّذين خلوا : حالهم الّتي هي مَثَلٌ فى الشّدّة » .

مسّتهم : أصابتهم[4] .

البـأساء : شـدّة الفقر[5] .

الضّراء : المرض[6] والسّقم[7] .

زلزلـوا : أزعجوا بأنواع البلاء[8] والزّلزلة شدّة التّحريك ، تكون فى الأشخاص وفى الأحوال[9] .

متـــى : سؤال عن الوقت فقيل ذلك على سبيل الدّعاء لله تعالى والاستعلام لوقت النصر فأجابهم الله تعالى فقال : ألا إنَّ نصر الله قريب وقيل ذلك على سبيل الاستبطاء[10] .

تخاطب الآية الكريمة فى هيئة الاستفهام : بل أحسبتم[11] وظننتم أن تدخلوا يوم القيامة الجنّة التي عرضها السماوات والأرض والتي أُعِدّت للمتقين ولم يأتكم بَعْدُ مَثَلُ الذين مضوْا قبلكم وقد زاغت أبصارهم وبلغت القلوب الحناجر بسبب الامتحان الذى امتحن به القوم ، والابتلاء الذى خُصُّوا به بحيث إنَّ كلَّ ذلك يصحّ أن ينّزل منزلة المثل الذى يقاس عليه ويتمثّل به . أمّا تفسير ذلك البلاء ففي قوله تعالى : مسّتهم البأساء

---

(١) تفسير القرطبي ص ٨٤٢ .
(٢) البحر المحيط ٢ / ١٤٠ .
(٣) الكشـاف ١ / ٢٧٠ .
(٤) انظر البحر المحيط ٢ / ١٤٠ .
(٥) الجلالين وتفسير ابن كثير ١ / ٢٥١ .
(٦) الجـلالين .
(٧) تفسير ابن كثير ١ / ٢٥١ .
(٨) الجـلالين .
(٩) تفسير القرطبي ص ٨٤٢ .
(١٠) البحر المحيط ٢ / ١٤٠ .
(١١) الجـلالين .

والضّرّاء وزلزلوا لقد تمكّن منهم الفقر ، والمرض ، وأُزْعجِوا إزْعاجاً شديداً للدّرجة التي صحّ معها دليلاً على ثقة المؤمنين فى نصر الله تعالى القريب واستعجالهم له وقد تباطأ فى ظنّهم دليلاً على شدّة الكرب للدرجة التي صحّ معها أن يجيء على ألسنة رسل الله تعالى القول : « متى نصر الله » ولمّا كان السؤال بمتى يشير إلى استعلام القرب تضمن الجواب القرب[1] : « ألا إنَّ نصر الله قريب » .

« جاء فى الحديث الصحيح عن خبّاب بن الأَرَتّ قال : قلنا يا رسول الله ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا ؟ فقال : إنّ من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه فيخلص على قدميه لا يصرفه ذلك عن دينه ، ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه ، ولا يصرفه ذلك عن دينه . ثمّ قال : والله ليتمّنّ الله هذا الأمر حتّى يسير الرّاكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنّكم قوم تستعجلون »[2] .

---

(١) البحر المحيط ٢ / ١٤١ .

(٢) تفسير ابن كثير ١ / ٢٥١ .

يسألونك وأشياء من أحوال الزواج

الآيات : ٢١٥ - ٢٤٢

﴿٢١٥﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ

نزلت الآية فى عمرو بن الجموح ، وكان شيخاً كبيراً فقال : يا رسول الله : إنّ مالي كثير ، فبماذا أتصدق ، وعلى من أنفق ؟ فنزلت : يسألونك ماذا ينفقون[1] وقيل إنّ السّائلين هم المؤمنون . والمعنى : يسألونك ما هي الوجوه التي يُنفقون فيها ، وأين يضعون ما لزم إنفاقه[2] .

ومناسبة هذه الآية لما قبلها أن الصّبر على النفقة وبذل المال هو مِنْ أعظم ما تحلّى به المؤمن ، وهو من أقوى الأسباب الموصلة إلى الجنّة ، حتى لقد ورد : الصّدقة تطفىء غضب الرّب[3] .

ويلاحظ أنّ السّؤال قد ركّز على ما ينفق . وقد مرّ الجواب عليه سريعاً « قل ما أنفقتم من خير » وهو يدلّ على طيب المنفق وكونه حلالاً ، لأنّ الخبيث منهيٌّ عنه بقوله : ولا تيمّموا الخبيث منه تنفقون . وما ورد من أنّ الله طيّب لا يقبل إلا الطيّب ، ولأنّ الحرام لا يقال فيه خير[4] وبما أنّ ما ينفق يشترط وجود المنفق عليه أو المصرف ، وبما أنّ المنفق عليه فى هذه المسألة هو أهم الشّقّين ، لذا كان ثمة تفصيلٌ بشأن المنفق عليهم صدقة التطوع . « وبدأ فى المصرف بالأقرب فالأقرب ثمّ بالأحوج فالأحوج »[5] « ولمّا كان أوّلا السؤال عن خاص أجيبوا بخاص . ثم أتى بعد ذلك الخاصّ التّعميم فى أفعال الخير »[6] .

---

(١) تفسير القرطبي ص ٨٤٤ والجلالين والكشاف ١ / ٢٧٠ والبحر المحيط ٢ / ١٤١ .
(٢) تفسير القرطبي ص ٨٤٥ .
(٣) البحر المحيط ٢ / ١٤٢ .
(٤) البحر المحيط ٢ / ١٤٣ .
(٥) البحر المحيط ٢ / ١٤٢ .
(٦) البحر المحيط ٢ / ١٤٣ .

﴿٢١٦﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

تحدّثت الآية الكريمة السابقة عن صدقة التطوع وعن مصارف الأموال . ومعروف أنّ المال محبوب إلى النفس . وإنما يجود المسلم بماله ابتغاء مرضاة الله تعالى . وإنّ نفس الإنسان أغلى عنده من المال . وإنّ المسلم مطالب بأن يجود بنفسه وبماله ابتغاء مرضاة الله تعالى .

والجود بالنفس أقصى غاية الجود .

وقد نصّ القرآن الكريم على كونه جل وعلا قد اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة(١) وها هي ذى الآية الكريمة التي تحولّنا إليها تتحدّث عن فرض الله تعالى القتال فى سبيله جل وعلا على المؤمنين .

ومعنى كُتب : فُرض(٢) عليكم القتال . للكفار(٣) وهو كره لكم . بمعنى وهو مكروه لكم طبعاً لمشقّته(٤) وبذلك يكون فُعْلاً بمعنى مفعول . كالُخبز بمعنى المخبور(٥) وإنما تكره النفس بطبعها القتال ، لأنّ فيه مفارقة الأهل والأوطان ، وانفاق الأموال ، وقطع الأطراف، وبذل الأرواح . وفى مقابل هذه الأمور المكروهة خير كثير لا حصر له . ففي الجهاد فى سبيل الله تعالى ذودٌ عن بيضة الإسلام وتمكينٌ من الله تعالى للمجاهدين فى الأرض ، ونشر لدين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى لعباده والحصول على الغنائم وعلى الأجر العظيم من الله تعالى وعلى الشهادة . قال تعالى « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير

---

(١) سورة براءة : ١١١ .
(٢) الجلالين .
(٣) الجلالين .
(٤) الجلالين والكشاف ١ / ٢٧٠ والبحر المحيط ٢ / ١٤٣ .
(٥) الكشاف ١ / ٢٧٠ .

شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبّوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون »
«قيل : عسى بمعنى قد . قاله الأصمّ . وقيل : هي واجبة . وعسى من الله واجبة فى جميع القرآن إلاّ قوله تعالى : عسى ربّه إن طلّقكم أن يبدله . وقال أبو عبيدة : عسى من الله إيجاب . والمعنى : عسى أن تكرهوا ما فى الجهاد من المشقّة وهو خير لكم فى أنّكم تَغْلبون وتظفرون وتغنمون وتؤجرون . ومن مات مات شهيداً . وعسى أن تحبوا الدّعة وترك القتال ، وهو شرٌّ لكم فى أنّكم تُغْلبون وتَذِلّون ويذهب أمركم »[1] .

قال ابن عطيّة : والّذى استمر عليه الإجماع أنّ الجهاد على كلّ أمّة محمد ﷺ فرض كفاية . فإذا قام به من قام من المسلمين سقط عن الباقين ، إلاّ أن ينزل العدّو بساحة الإسلام فهو حينئذ فرض عين[2] وثبت فى الصّحيح : من مات ولم يَغْزُ ولم يحدّث نفسه بالغزو مات ميتة جاهلية . وقال عليه السّلام يوم الفتح : لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونيّة إذا استنفرتم فانفروا[3] .

موعظة وذكرى :

لقد تأكد لكل من لديه مُسْكَةٌ من عَقْل بأنّ عِزّ المسلمين فى رفع راية الجهاد فى سبيل الله تعالى ، وأنّ ذلّهم فى تعطيل الجهاد فى سبيل الله تعالى وعدم إعداد القوة التي أمرهم الله تعالى بإعدادها لإرهاب عدو الله تعالى وعدوّهم . وأودّ دليلاً على إعجاز القرآن الكريم الذى أمر المسلمين بالقتال فى سبيل الله تعالى أن أذكر نصيّن فقط لهما علاقة بفردوس المسلمين المفقود فى الأندلس المسلمة حينما عطّل المسلمون هذه الشّعيرة الدينية . أمّا النّص الأوّل فهو تعليق أبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي الأندلسي المتوفي سنة ٦٧١ هـ الموافق ١٢٧٣ م فى تفسيره ، على الآية الكريمة وعلى إجماع الأمة على الجهاد فى سبيل الله تعالى ، إمّا باعتباره فرض كفاية أو عين كما مرّ بنا . يقول رحمه الله[4]: « قلت : وهذا صحيح لاغبار عليه ، كما اتّفق فى بلاد الأندلس ، تركوا الجهاد وَجبنوا عن القتال واكثروا من الفرار ، فاستولى العدوّ على البلاد وأيّ

---

(١) تفسير القرطبي ص ٨٤٧ .
(٢) تفسير القرطبي ص ٨٤٦ .
(٣) تفسير ابن كثير ١ / ٢٥٢ .
(٤) تفسير القرطبي ص ٨٤٧ .

بلاد !؟ وأسر وقتل وسبَىَ واسترقّ فإنّا لله وإنّا إليه راجعون ! ذلك بما قدمت أيدينا وكسبته » .

وأمّا النّصّ الثّانى فهو للدكتور الشيخ مصطفى بن حسن السباعي[1] رحمه الله تعالى فى كتابة من روائع حضارتنا معلّقاً على ضياع الأندلس المسلمة ، مقارِناً بين نقض المسيحيين للعهود والمواثيق والذّمم ، ووفاء المسلمين يقول رحمه الله تعالى[2] :« ولا أريد أن أُفيض فى المقارنة بين أخلاق الفاتحين المسلمين فى الأندلس ، وحسن معاملتهم للمغلوبين ، ورحمتهم بهم ورعايتهم لشعورهم وبين ما فعله الإسبان حين استولوا على غرناطة (آخر مملكة للإسلام فى الأندلس) بعد أن أعطوا المسلمين بضعةً وستّين عهداً باحترام ديانتهم ومساجدهم وأموالهم وأعراضهم . ولكنّهم لم يرعَوْا عهداً ، ولم يفوا بذمّة ، ولم يَعِفّوا عن سفك الدماء وإزهاق الأرواح وسلب الثَّروات . فلم يكد يمضى على سقوط غرناطة اثنتان وثلاثون سنة حتى أصدر البابا أمره عام ١٥٢٤ بتحويل جميع مساجد إسبانيا إلى كنائس ! ولم تمرّ بعد ذلك أربع سنوات أخرى حتى لم يبق فى إسبانيا كلّها مسلمٌ واحد ! هذا هو وفاؤهم بالعهود . وذلك هو وفاؤنا » .

قال تعالى[3] « فاعتبروا يا أولى الأبصار » .

---

(١) ولد رحمه الله تعالى سنة ١٣٣٣ هـ ١٩١٥ م وتوفى سنة ١٣٨٤ هـ ١٩٦٧ م (الاعلام) .

(٢) من روائع حضارتنا ص ١٠٨ .

(٣) سورة الحشر : ٢ .

﴿٢١٧﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ

سبب النزول :

القول بأنّ نزول الآية الكريمة فى قصّة عبدالله بن جحش أكثر وأشهر ، وأنَّ النبيّ ﷺ بعثه مع تسعة رهط ، وقيل ثمانية ، فى جمادى الآخرة قبل بدر بشهرين ، وكتب له كتاباً وأمره ألا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا(١) وقال : ولا تكرهنّ أصحابك على المسير . فلمّا بلغ المكان قرأ الكتاب فاسترجع وقال : سمعاً وطاعة . ثم أخبر أصحابه بذلك ، وبأنّه لا يستكره أحداً منهم . وأنّه ناهض لوجهه بمن أطاعه . وأنّه إن لم يطعه أحد مضى وحده . فمن أحبّ الشّهادة فلينهض ، ومن كره الموت فليرجع . فقالوا : كلنُّا نرغب فيما ترغب فيه ، وما منّا أحد إلاّ وهو سامعٌ مطيع لرسول الله ﷺ . ونهضوا معه . فسلك على الحجاز(٢) ولقوا عمرو بن عبدالله الحضرمي وثلاثة معه ، فقتلوه واسروا اثنين واستاقوا العير وفيها من تجارة الطائف . وكان ذلك أوّل يوم من رجب . وهم يظنونه من جمادى الآخِرة ، فقالت قريش قد استحلّ محمّد الشهر الحرام شهراً يأمن فيه النّاس . فوقف رسول الله ﷺ العير ، وعظم ذلك على أصحاب السرية وقالوا : ما نبرح حتى تنزل توبتنا . وردّ رسول الله ﷺ العير والأسارى(٣) وبلغنا أنّ النّبيّ ﷺ عقل(٤) ابن الحضرميّ . وحرّم الشهر الحرام كما كان يحرّمه ، حتى

---

(١) بطن نخلة كما فى تفسير ابن كثير ١/٢٥٢ وبطن نخلة هو المعروف حالياً باليمانية بين السيل الكبير والزّيماء .

(٢) انظر تفسير القرطبي ص ٨٤٨ ، ٨٤٩ والبحر المحيط ٢/١٤٤ .

(٣) انظر الكشاف ١ / ٢٧٠ .

(٤) عَقَل القتيل : أعطى ورثته ديته بعد مقتله .

أنزل الله عز وجل : براءة من الله ورسوله(١) فالجمهور على نسخ الآية الكريمة وأنّ قتال المشركين فى الأشهر الحرام مباح . واختلفوا فى ناسخها . فقال الزّهريّ : نسخها ، وقاتلوا المشركين كافّة . وقيل : نسخها غزو النّبيّ ﷺ ثقيفاً فى الشّهر الحرام . واغراؤه أبا عامر(٢) إلى أوطاس(٣) فى الشّهر الحرام(٤) وكان عطاء يقول : الآية محكمة ، ولا يجوز القتال فى الأشهر الحرم . ويحلف على ذلك ، لأنّ الآيات التى وردت بعدها عامّة فى الأزمنة . وهذا خاصّ . والعامّ لا ينسخ الخاصّ باتفاق . وروى أبو الزبير عن جابر قال : كان رسول الله ﷺ لا يقاتل فى الشهر الحرام إلاّ أن يُغْزى(٥) .

ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنّه لمّا فرض القتال لم يخصّ بزمان دون زمان فبيّن حكم القتال فى الشّهر الحرام(٦) .

عن ابن عباس قال : ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب محمّد ﷺ . ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة كلّهنّ فى القرآن ... ما كانوا يسألون إلا عمّا ينفعهم(٧) .

والأشهر الحرم أربعة : رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرّم(٨) وقد قال عز من قائل(٩) : « إنَّ عدّة الشّهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السماوت والأرض منها أربعة حرم » .

ومعنى الآية الكريمة . إنّك يا محمد لتسأل عن القتال فى الشهر الحرام ، الذى كانت العرب لا تسفك فيه دماً ولا تغير . قل يا محمد إنَّ القتال فى الشهر الحرام مستنكر وذنبه كبير . وإنَّ ما فعله كفّار قريش من صدّهم عن سبيل الله تعالى من أراد الدخول فى الإسلام ، ومِنَ الكفر بالله تعالى ومِنَ الصّدّ عن المسجد الحرام واخراجهم أهله منه كما فعلوا برسول الله ﷺ وبالمؤمنين ، لهو أكبر جرماً عن الله وإثماً . ويستحقّون عليه أشد

---

(١) هو أبو عامر الأشعري ابن عم أبي موسى الأشعرى .
(٢) واد فى ديار هوازن وفيه كانت وقعة حنين .
(٣) تفسير القرطبي ص ٨٥١ وانظر البحر المحيط ٢ / ١٤٦ .
(٤) تفسير القرطبي ص ٨٥١ وانظر البحر المحيط ٢ / ١٤٦ .
(٥) البحر المحيط ٢ / ١٤٥ .
(٦) تفسير القرطبي ص ٨٤٨ .
(٧) تفسير القرطبي ص ٨٥٣ .
(٨) سورة براءة : ٣٦ .
(٩) تفسير القرطبي ص ٨٥١ .

العقوبة . وإنّ فتنتكم يا كفار قريش المسلمين عن دينهم بقصد أن يرتدّوا إلى الكفر ، لهو أشدّ إجراماً من قتلكم فى الشهر الحرام على سبيل الخطأ والبناء على الظّنّ .

« قوله تعالى قتال فيه ، قتال بدل عند سيبويه بدل اشتمال . لأنّ السّؤال اشتمل على الشهر وعلى القتال . أي يسألك الكفّار تعجّباً من هَتْك حرمة الشّهر . فسؤالهم عن الشّهر إنما كان لأجل القتال فيه . قال الزّجّاج : المعنى يسألونك عن القتال فى الشّهر الحرام . وقال القُتَبِيّ : يسألونك عن القتال فى الشهر الحرام هل يجوز ؟ فأبدل قتالاً من الشهر . وأنشد سيبويه[1] .

فما كان قيسٌ هُلْكُه هُلْكَ واحدٍ ولكنّه بنيان قوم تهدماً[2]

وبعد أن بيّنت الآية الكريمة حرص الكافرين على فتنة المسلمين عن دينهم ، نصّت على كون الكافرين سيظلّون يعملون بكل الوسائل ، وفى مقدمتها القتال ، على حمل المسلمين على الارتداد عن دينهم لو كان فى استطاعة الكافرين السيطرة على القلوب كي يحملوها على الارتداد عن دين الإسلام وعلى الكفر بالله تعالى .

وتهدد الآية الكريمة من يرتد – لا سمح الله تعالى – عن دينه دون أن يتوب إلى الله تعالى توبةً نصوحاً ويعود إلى دين الإسلام الذى رضيه الله تعالى لعباده ، بل يموت وهو كافر ، بأنّ أعمال المرتد الصالحة تبطل وتفسد فى الدّنيا والآخرة « فى الدّنيا من ثمرات الإسلام وباستدامتها والموت عليها من ثواب الآخرة »[3] ويبقى له عقاب ارتداده وكفره المتمثّل فى نار جهنّم التي يخلد فى عذابها مهاناً والعياذ بالله » .

---

(١) البيت لعَبْدة بن الطّبيب ، رثى فيه قيس بن عاصم المِنْقريّ ، وكان سيّد أهل الوبر من تميم .

(٢) تفسير القرطبي ص ٨٥٢ .

(٣) الكشـاف ١ / ٢٧١ .

﴿٢١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

هذه الآية الكريمة مظهر مظاهر رحمته جل وعلا بعباده المؤمنين المتقين جل وعلا . لقد ظنّ عبدالله بن جحش وأصحابه حين قتلوا عمرو بن الحضرمي فى الشهر الحرام أنّهم إنْ سلموا من الإثْم فليس لهم أجر . علماً بأنَّ عبد الله بن جحش مثلاً من المؤمنين المهاجرين المجاهدين فى سبيله جل وعلا فنزلت الآية الكريمة .

وقد ابتدأت أوصاف هؤلاء المتقين بالإيمان ، وهي أهمّ صفةٍ مشتركة بين هذا الفريق من المسلمين . وكان لهذه الصفة حظها من اسم الموصول « إن الذين آمنوا » وباعتبار صفتي الهجرة والجهاد فى سبيل الله تعالى صفتين متصلتين ببعضهما ، كان من حظهما اسم موصول واحد « والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله » إنَّ المؤمنين المهاجرين المجاهدين فى سبيل الله تعالى أولئك يرجون رحمة الله تعالى ويطمعون في مغفرته جل وعلا لأنّ على الإنسان ألا يتواكل ، بل عليه أن يكون حَذِراً دائماً يَقِظاً أبداً ، ثم إنّه لا يعلم ما الذى يختم الله تعالى به حياته . وإذا كان أولئك المؤمنون المهاجرون والمجاهدون فى سبيل الله تعالى ، ينبّههم جلّ وعلا إلى وجوب الحيطة والحذر ، فمن باب أولى الذين يلونهم فى الصفات . وتختم الآية الكريمة بتقرير الحقيقة القائمة من كونه جل وعلا هو الغفور الرحيم . فعلى الناس جميعاً أن يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحا .

﴿٢١٩﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ

سبب النزول :

ثَمَّةَ سببان لنزول الآية . أحدهما سؤال المؤمنين عن حكم الخمر(١) وثانيهما سؤال المؤمنين عن الصّدقات . قيل فى التّطوع وهو قول الجمهور(٢) وقد(٣) نزلت فى الخمر أربع آيات نزلت بمكة : ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسنا . فكان المسلمون يشربونها وهي لهم حلال . ثم إنّ عمر ومعاذاً ونفراً من الصّحابة قالوا يا رسول الله : أفتنا فى الخمر فإنّها مذهبة للعقل مسلبة للمال . فنزلت : يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما إثمٌ كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما . فشربها قوم وتركها آخرون . ثم دعا عبد الرحمن بن عوف ناسا منهم فشربوا وسكروا فأمَّ بعضهم فقرأ : قل يا أيها الكافرون . أعبد ما تعبدون ، فنزلت : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصّلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً إلاّ عابرى سبيل حتى تغتسلوا » . فقلّ من يشربها .

ثم دعا عتبان بن مالك قوماً فيهم سعد بن أبي وقّاص فلمّا سكروا افتخروا وتناشدوا حتى أنشد سعد شعراً فيه هجاء الأنصار . فضربه أنصارى بلَحْي(٤) بعير فسجّه موضِحه(٥) فشكا إلى رسوا الله ﷺ فقال عمر : اللّهمّ بيّن لنا فى الخمر بياناً شافياً فنزلت : « يا أيّها الّذين آمنوا إنّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رِجْسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنّما يريد الشّيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والمَيْسر ويصدَّكم عن ذكر الله وعن الصّلاة فهل أنتم منتهون » . فقال عمر رضى الله عنه : انتهينا يارب .

---

(١) تفسير القرطبي ص ٨٥٩ .
(٢) البحر المحيط ٢ / ١٥٨ .
(٣) الكشاف ١ / ٢٧٢ وقد أكملنا الآيات .
(٤) اللَّحْي بفتح اللام عظم الحَنَك الّذى عليه الأسنان.
(٥) الموضحة بكسر الضّاد الشّجّة التي تبدى وَضَحَ العظام . يقال : أوْضَحَتِ الشّجّة فى الرّأس : كشفت العظم .

والخمر : ماء العنب الّذى غَلَى أو طُبِخ . وما خامر العقل من غيره فهو فى حكمه[1] وسمّيت خمراً لتغطيتها العقل والتّمييز ، كما سمّيت سَكَراً لأنّها تسكرهما أى تحجزهما . وكأنّها سميّت بالمصدر من خمره خمراً إذا ستره للمبالغة[2]هذا فى اللغة . وأمّا فى الشّريعة فقال الجمهور : كلّ ما خامر العقل وأفسده ممّا يشرب يسمى خمراً[3] والجمهور من الأمّة على أن ما أسكر كثيره من غير خمر العنب فمحرّم قليله وكثيره . والحدّ فى ذلك واجد[4] .

والميسر : القمار . وهو مَفْعِل من يَسَر ، كالموعد من وعد . يقال : يَسَرْت الميسِر أى قامرته . قال الشّاعر :

لو تيسِرون بخيـــلٍ قد يَسَرْتُ بها وكلّ ما يسر الأقـــوام مغـــروم

واشتقاقه من اليُسْر وهو السّهولة ، أو من اليسار ، لأنّه يسلب يساره ، أو من يَسَرَ الشيء إذا وجب . أو من يَسَرَ إذا جَزر . والياسر الجازر ، وهو الذى يُجْزِىء[5] الجزور أجزاء . قال الشاعر :

[وهو سحيم بن وَثيل البربوعي][6] :

أقول لهم بالِشّعب إذ يَيْسرونني ألم تيأسوا[7] أنّى ابـن فارس زَهْـدَم

وسمّيت الجزور الّتي يُسْهَمُ عليها مَيْسِراً لأنّها موضع اليَسَر . ثمّ قيل للسِهام مَيْسِر للمجاورة[8] .

---

(١) تفسير القرطبي ص ٨٦٠ وانظر البحر المحيط ٢ / ١٥٤ .(٢) الكشاف ١ / ٢٧٢ .

(٣) البحر المحيط ٢ / ١٥٦ . (٤) تفسير القرطبي ص ٨٦٠ .

(٥) يقال : جَزَأ الشّىء يَجْزِئه بمعنى قَسَمه أجزاء . وجزّأ الشّىء بالتّشديد بمعنى قسّمه فانقسم .

(٦) كما فى تفسير القرطبي ص ٨٦١ .

(٧) تيأسوا من يئس بمعنى علم . وزهدم كجعفر اسم فرس . وكان قد وقع عليه سباء فَضُرِبَ عليه بالسّهام . تفسير القرطبي ص ٨٦١ .

(٨) البحر المحيط ٢ / ١٥٤ .

« فإن قلت : كيف صفة الميسر ؟ قلت كانت لهم عشرة أقداح وهى الأزلام والأقلام الفذّ . والتّوأم والرّقيب . والحلس والنّافس . والمسبل . والمُعَلَّى . والمنيح . والسَّفيح . والوغد . لكل واحد منها نصيب معلوم من جزور ينحرونها ويَجْزِئونها عشرة أجزاء . وقيل ثمانية وعشرين إلا لثلاثة وهي : المنيح والسّفيح والوغد . ولبعضهم :

لي فى الدّنيـــــا سهـــــامٌ ليس فيهنّ ربيـــــــــــح
وأساميهنّ وغـــــــــدٌ وسَفيـــــحٌ ومنيَـــــــح

للفذّ سهم . وللتّوأم سهمان . وللرّقيب ثلاثة . وللحِلس أربعة . وللنّافس خمسة . وللمسبل ستّه . وللمعلَّى سبعة . يجعلونها فى الرِّبابة(١) وهي خريطة(٢) ويضعونها على يدى عَدْلٍ ثم يجلجلها(٣) ويدخل يده فيخرج باسم رجل رجل قِدْحاً منها . فمن خرج له قِدْحٌ من ذوات الأنصباء أخذ النّصيب المرسوم به ذلك القِدْح ، ومن خرج له قِدْحٌ ممّا لا نصيب له لم يأخذ شيئاً ، وغرم ثمن الجزور كله . وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء ولا يأكلون منها ويفتخرون بذلك ويذمّون من لم يدخل فيه ويسمّونه البَرَم »(٤) .

والعفو من قوله تعالى : « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو » بمعنى ما سَهُل وتيسَّر وفَضَل ولم يشقّ على القلب إخراجه . ومنه قول الشّاعر :

خذى العفو منّى تستديمى مودتى
ولا تنطقي فى سورتي حين أغضب

---

(١) الرِّبابة بكسر الراء خرقة تجمع فيها السّهام أو سُلفة تلفّ على يد مُخْرِج القداح لئلاّ يجد مسّ قِدْح يكون له فى صاحبه هوى . القاموس .

(٢) الخريطة وعاء من أدم وغيره يُشْرَجُ على ما فيه . وأُخْرَط أشرجها . القاموس . والأديم : الجلد أو أحمره أو مدبوغه . القاموس . والشّرْج بسكون الراء شدّ الخريطة كالإشراج والتّشريج القاموس .

(٣) الجَلْجلة : التّحريك . القاموس .

(٤) الكشاف ١/٢٧٢ وانظر البحر المحيط ٢/١٥٤ فثمة وصف مستفيض للعملية وتفسير القرطبي ص ٨٦٦ .

معنى الآية الكريمة :

سأل المؤمنون المصطفى ﷺ عن الخمر والميسر . وكان الجواب من الله تعالى « قل فيهما إثْمٌ كبير ومنافع للنّاس وإثمهما أكبر من نفعهما » .

ويلاحظ أنّ إثم الخمر والميسر يُقدّم على نفعهما . ثم إنّ الإثم يوصف بأنّه كبير . هذا إلى أنّ لفظ الإثم يجيء منكّراً . ممّا يصحّ أن يفهم منه التّهويل . وإنّ ما فهم من التّنكير ومن الوصف ، صُرّح به فى القول : « وإثمهما أكبر من نفعهما » .

فما هي منفعة الخمر ؟ يقول القرطبي[1] : « أمّا فى الخمر فربح التّجارة فإنّهم كانوا يجلبونها من الشّام برُخص فيبيعونها فى الحجاز بربح . وكانوا لا يَرَوْن المماكسة فيها ، فيشترى طالب الخمر بالثّمن الغالى . هذا أصحّ ما قيل فى منتفعها . وقد قيل فى منافعها : إنّها تهضم الطعام ، وتقوّى الضعف ، وتعين على الباه ء وتسخىّ البخيل ، وتشجّع الجبان ، وتصفىّ اللّون . إلى غير ذلك من اللّذّة بها . وقد قال حسان بن ثابت رضى الله عنه :

ونشربها فتتركنـــا ملوكـــاً وأسداً ما ينهنهنـــا[2] اللقـــاء

إلى غير ذلك من أفراحها . وقال آخر[3] :

فإذا شربت فإنّنـــــي ربُّ الخورنـــق والسّديـــر
وإذا صحـــوت فإننـــي ربُّ الشّويهة والبـــعير

وما هي منفعة الميسر ؟ يقول القرطبي[4] : « ومنفعة الميسر مصير الشّيء إلى الإنسان فى القمار بغير كدّ ولا تعب . فكانوا يشترون الجزور ويضربون بسهامهم ، فمن خرج سهمه أخذ نصيبه من اللّحم ، ولا يكون عليه من الثّمن شيء . ومن بقى سهمه آخراً كان عليه ثمن الجزور كلّه ولا يكون له من اللّحم شيء . وقيل : منفعته التّوسعة على

---

(١) تفسير القرطبي ص ٨٦٥ .
(٢) النّهنهة : الكفّ والمنع .
(٣) هو المنخّل اليشكري .
(٤) تفسير القرطبي ص ٨٦٥ .

المحاويج . فإنّ من قَمَر منهم كان لا يأكل من الجزور وكان يفرقّه فى المحتاجين » .

إثْم الخمر والميسر :

تبيّنّا فى ذكر منفعة الميسر إثْمة . فأوّل ما يلاحظ أنّه أكل لأموال الناس بالباطل ، لأنّ فى الميسر اصابة المال بلا كدّ ولا تعب . قال ابن عباس : كان الرّجل فى الجاهلية يخاطر الرّجل على أهله وماله . فأيهما قَمَرَ صاحبه ذهب بماله وأهله فنزلت الآية(١) ولا شكّ أنّ الاستيلاء على أموال الآخرين بغير وجه حق من أهم أسباب العداوة والغضاء .

وما إثم الخمر ؟ « إثم الخمر ما يصدر عن الشارب من المخاصمة والمشاتمة وقول الفحش والزّور وزوال العقل الّذى يعرف به ما يجب لخالقه ، وتعطيل الصّلوات والتعوّق عن ذكر الله إلى غير ذلك . روى النّسائيّ عن عثمان رضى الله عنه قال : اجتنبوا الخمر فإنّها أمّ الخبائث(٢) ويقول القرطبي(٣) : قوله تعالى : «وإثمهما أكبر من منفعها . أعلم الله جلّ وعزّ أنّ الإثم أكبر من النّفع وأعود بالضّرر فى الآخرة . فالإثم الكبير بعد التحريم . والمنافع قبل التحريم ... النبيّ ﷺ لعن الخمر ولعن معها عشرة: بائعها ومبتاعها ، والمشتراة له ، وعاصرها والمعصورة له ، وساقيها ، وشاربها ، وحاملها ، والمحمولة له ، وآكل ثمنها » .

وكما سأل المؤمنون عن الخمر والميسر سألوا عمّا ينفقون . وسبق أن تمّ السّؤال نفسه فى الآية الخامسة عشرة بعد المائتين ، من سورة البقرة « يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل . وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم » وسبق أن كان الجواب عن الإنفاق ذاته مقتضباً ، وكان التفصيل بشأن المنفق عليهم . أمّا الجواب فى هذه الآية الكريمة فإنّه مقصور على الإنفاق ذاته أو النفقة ذاتها « فالمعنى : أنفقوا ما فضل عن حوائجكم ولم تؤذوا فيه أنفسكم فتكونوا

---

(١) تفسير القرطبي ص ٨٦٠ .

(٢) تفسير القرطبي ص ٨٦٣ .

(٣) تفسير القرطبي ص ٨٦٨ .

عالة . هذا أَوْلى ما قيل فى تأويل الآية وهو معنى قول الحسن وقتادة وعطاء والسُّدّى والقَرظَيّ محمد بن كعب وابن أبي ليلى وغيرهم . قالوا : العفو ما فضل عن العيال . ونحوه عن ابن عبّاس . وقال مجاهد : صدقة عن ظهر غنى . وكذا قال عليه السّلام : خير الصّدقة ما أنفقت عن غنىً . وفى حديث : « خير الصّدقة ما كان عن غنى ... وقال جمهور العلماء ... بل هي نفقات التّطوّع »(١) .

من آثام الخمر :

ما أكثر آثام الخمر التي رآها المرء بعيني رأسه ، مما يُفْهِمُ معه شيء من فضل الله تعالى علينا وقد حرّم الخمرة على المسلمين . ولا أودّ أن اضرب الكثير من الأمثلة التي تقشعر منها جلود الذين لديهم مُسْكة من عقل أو بقيّة من دين أو شيء من حياء . إنما أود أن اقتصر على حادثتين اثنتين فيهما العظمة والعبرة وفيهما البكاء والضحك معا ، علّ الذين أغواهم الشيطان بارتكاب هذا المنكر يتوبون إلى بارئهم جلّ وعلا توبة نصوحا . أما إحدى الحادثتين فقد كنت شاهدها . وأمّا ثانية الحادثتين فقد قصّها على زملاء ثقات رأوا الحادثة بأعينهم . وكلتا الحادثتين فى ديار الغرب الذى يحاول جاهداً تسريب هذا السّم إلينا بكل وسائله وحيله ، إضافة إلى ما يسرّب إلينا من أضرار يتمثل بعضها فى السجائر التي تزيد نسبةُ القطران فى السيجارة الواحدة عن ثلاثة أو أربعة أمثال الكميّة المسموح بها فى البلدان التى تصنّع السيجارة وفى السيارات التي هي عبارة عن طلقات أعيرة نارية أو صواريخ أرضية ، تقتل شبابنا وشيوخنا ، وتثكل امهاتنا ، وتيتمّ صغارنا فى الوقت الذى تجد منتهى سرعة السيارة المستعملة فى البلد الذى يصنعها تقترب من أقل درجات السّرعة المسموح بها فى بعض البلدان العربية والإسلامية التى لا تريد أن تفطن إلى هذه القبور التي تحفر لنا والتي نسعى حثيثاً إليها بأرجلنا وبأموالنا . وكجعلنا نحن المسلمين حقول تجارب للمسائل الخطرة التي لا يريدون أن يغامروا بجعل صغارهم وكبارهم حقول تجاربها ، وذلك كجعلهم أطفال المسلمين ابتداء حقولَ تجارب لبعض العقاقير إلى غير ذلك من مآسٍ أو مهازل . سمّها كيف شئت .

---

(١) تفسير القرطبي ص ٨٦٩ .

الحادثة الأولى :

كنت فى مدينة لندن وفى شهر رمضان كنا نصلي صلاة القيام بالمركز الإسلامي . وصادف مجيء رمضان فى تلك الأثناء فى فصل الشتاء ، كما صادف مجيء أحد الأعياد المسيحية فى تلك الأثناء . وفى أمثال هذه المناسبات تتجاوز القطارات بعض المحطات ولا تقف فيها . وفى طريقنا إلى المحطة البعيدة عن المركز شاهدنا أحد الأوربيين الذين أسرفوا على أنفسهم فى شرب الخمر ، وأنت تعجب فى آن واحد لأمرين اثنين . لإسرافه فى شرب الخمر للدرجة التي يترنح معها بحيث إنّ كلاً من يديه تكاد تلامس الأرض لفرط تمايله يَمْنةً ويَسْرة . وثانيهما هو أنه رغم إسرافه فى الشّرب وفى التّرنحّ وفى الهذيان كذلك ، كان على علم بخطّ سيره . حتى إنّه حينما أراد أن يقطع الشارع إلى المحطّة سار فى الممر المخصص للمشاة . ثّم غاب عنا ذلك الشخص واشترينا التذاكر وانتظرنا القطار وجاء القطار وأخذتُ مع رفاق مقاعدنا وكان أمامي بالضبط كرس خال ، وكانت المفاجأة كبيرة حينما كان ذلك الكرسي من نصيب ذلك الثّمل الهاذى . وأَخَذَ يحملق فىّ أنا بالذّات ، وأخذ يهذى للدّرجة التي بدأ أحد الانجليز فى العربة يعتذر لنا عن سوء كلام الثمل وسلوكه . ولو وقف الأمر عند هذا الحدّ لهان الخطب ، ولكن الرجل الثَّمِل الذى لم يكفَّ عن الهذيان والحركة فوق مقعده أخذ يتحسس بكلتا يديه المرتعشتين الطريق إلى أيّ من جيوب ملابسه . ولاتكاد أيٌّ من اليدين تجد طريقها إلى أحد الجيوب إلاّ بعد لأى . وبدا كأنه يبحث جاداً عن شيء مّا غاية فى الأهمّيّة . وساد العربة صمت مطبق عميق وسكون مهيب . يحدث كل ذلك من الرجل الجاد فى البحث عن شيء ما وهو لايكف عن الهذيان الذى كان بالمصادفة يوجّه إلىّ بالذات باعتبارى أمامه . وكانت أنظارى وأنظار من معى من الرفاق تتابع بدقة بالغة كلّ حركة لكلتا يديه . وهيّأنا أنفسنا ، وبخاصة أنا للدفاع المشروع عن أنفسنا فى حالة إخراجه لا سمح الله مسدساً أو مطواة أو ما شاكل ذلك . فكل هذيانه وحركاته يهيء لهذا النّوع من الظنون . ثم أخرج ذلك الرجل من جيبه شيئاً ما ، حينما رأيناه انفجرنا جميعاً ضاحكين وقلوبنا تبكي للمصير الكئيب الذى انتهى إليه الملايين من سكّان البلاد بسبب الإدمان على الخمر . قبل أن أذكر ذلك الشيء الذى أخرجه ذلك الشخص أودّ أن أبيّن أنّى وأنا

الجالس أمامه ، كنت أرتدى بسبب الشتاء القارس من الملابس الصوفية الداخليّة والخارجيّة ما جعلني أبدو فى مثل ضعفي حجمي تقريباً . لقد أخرج ذلك الثّمل من جيبه بعد لأى احدى العدسات الزجاجية المكبّرة للحروف وأخذ يقّربها بيديه المرتعشتين إلى إحدى هينيه ، علماً بأنّ العدسة اصطدمت بأنفه مرات عدة فى اثناء المحاولة لاصطياد احدى العينين تلك العدسة ، كي يراني أنا الشخص الجالس أمامه على بعد زهاء المتر الواحد من خلالها . يا للمأساة . لقد تبيّن أنه يريد أن يتبين حقيقة شكلي عن طريق الزجاجة المكبرة .

إنّه رغم مرور السنوات على هذه الحادثة فإنّا نحن الذين شاهدناه لا زلنا نتذكرها ضاحكين باكين سائلين الله سبحانه وتعالى أن يكفينا شرور الخصوم وشرور الشيطان الرجيم وشرور أنفسنا الأمارة بالسوء . وقد قال تعالى « فاعتبروا يا أولى الأبصار »[1] .

الحادثة الثانية :

أما الحادثة الثانية فقد حكاها لي بعض الرفاق وقد كانوا فى مدينة كمبرج البريطانية . قالوا كنا نقود سيارتنا فى المدينة وفوجئنا بتوقف حركة المرور فى أحد الشّوارع ذهاباً وإياباً . فانتظرنا وطال الانتظار . وقد تبينا أن أصحاب السيارات بدأوا يخرجون ويتحسسون الأخبار بانفسهم ثم يعودون ضاحكين أو ساخطين . فأغرانا ذلك بأن نتحسس الأخبار بأنفسنا . وكانت مفاجأتنا مذهلة حقاً ومضحكة . إنّ سبب توقّف حركة المرور فى ذلك الشارع تماماً هو أن شخصين ثملين قررا عبور الشارع مروراً بالمكان المخصّص للمشاة . والعجيب فى الأمر أن نشوة السكر أوحت لهما بأن يستفيدا وحدهما من المكان المخصص للمشاة . فكان أحدهما يبدأ فى قطع الشارع ، وقبل أن ينتهي يكون زميله قد استأنف المشى ، وقبل أن ينتهى يكون زميله قد عاد أدراجه وكهذا دواليك . وطرب الثّملان لاهتمام الناس بهما ، وامتدّ خط السيارات باتجاهيه ، وتملك أصحاب السيارات ، بناء على ظروفهم ، شعور ان من الغضب أو السخرية . ولم يفضّ المشكلة إلاّ البوليس . « فاعتبروا يا أولى الأبصار » .

---

(١) سورة الحشر : ٢ .

﴿ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

خُتمت الآية الكريمة السابقة بالدّعوة إلى التّفكرّ . وقد وَجهَّ صدر هذه الآية الكريمة التفكير إلى الدّنيا والآخرة . قال تعالى « كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون . فى الدّنيا والآخرة » والمراد أنّ على كل ذى لُبٍّ أن يستعمل نعمة العقل التي أكرمه الله تعالى بها استعمالاً صحيحاً فيعمل ما فيه خيره وصلاحه فى الدّنيا والآخرة . وقد قال تعالى(١) : « وللآخرة خير لك من الأولى » وقال تعالى(٢) : « ولأجرُ الآخرة خير للّذين آمنوا وكانوا يتّقون » وقال تعالى(٣) « ولا تنس نصيبك من الدّنيا وأحسن كما أحسن الله إليك » .

ثمّ كان السّؤال عن اليتامى وأمرُ الله تعالى بما فيه صلاح أموالهم وأحوالهم . وبما أنّ فى الآية السابقة سؤالاً عمّا ينفقون وأنّ فى هذه الآية تنبيهاً على إصلاح أموال اليتامى وأحوالهم . فالعلاقة الوثيقة واضحة بين الآيتين الكريمتين ، إضافةً إلى توجيه التّفكّر فى الآية السابقة إلى الدّنيا والآخرة فى هذه الآية الكريمة .

سبب النزول :

روى أبو داود والنّسائي عن ابن عباسّ قال : لما أنزل الله تعالى(٤) : « ولا تقربوا مال اليتيم إلاّ بالّتي هي أحسن » و « إنّ الذّين يأكلون أموال اليتامى ظلماً » الآية(٥) انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من شرابه فجعل يُفْضل من طعامه فيحبس له، حتى يأكله أو يفسد . فاشتدّ ذلك عليهم . فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله

---

(١) سورة الضحى : ٤ .
(٢) سورة يوسف : ٥٧ .
(٣) سورة القصص : ٧٧ .
(٤) سورة الاسراء : ٣٤ .
(٥) سورة النساء : ١٠ .

تعالى : « ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير » الآية . فخلطوا طعامهم بطعامه وشرابهم بشرابه[1] .

أعنتكم : من قوله عزّ من قائل : « ولو شاء الله لأعنتكم » من العنت ، بمعنى المشقّة[2] .

تقرر الآية الكريمة أنّ المؤمنين سألوا المصطفى ﷺ عن اليتامى ، كما مرّ فى أسباب النزول فبيّن الله تعالى أن إصلاح أموالهم وأحوالهم هو الخير . فعلى وصيّ اليتيم أن يحاول جاهداً تنمية مال اليتيم كما يفعل فى حقّ ماله . وفى الأحوال التي ينبغي فيها خلط مال اليتم بمال الوصي كالطّعام ، وفى المضاربة كالتّجارة ، وفى الأحوال التي ينبغى فيها مخالطة اليتيم ذاته بأن يزوجه ابنته إن كان ولداً أو أن يزوجها ابنه إنْ كانت بنتاً ، ينبغي إن يُنَزَّل اليتامى دائماً وأبداً منزلة الإخوان « فإخوانكم أى فهم اخوانكم »[3] وقد قال تعالى[4] : « إنّما المؤمنون أخوة » وقد جاء فى سورة النساء[5] قوله تعالى : « وابتلوا اليتامى حتّى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم . ولا تأكلوها إسرافاً وبدِارا أن يكبَروا . ومن كان غنيّاً فليستعفف . ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف . فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم . وكفى بالله حسيباً » .

والله سبحانه وتعالى يعلم المفسد الذى يرغب فى أكل أموال اليتامى بالباطل وإفساد أحوالهم ، من المصلح الذى يعمل بعكس ذلك . إنَّ كلاً من المفسد أو المصلح مجازى على فعله ونيّته .

ولو شاء الله تعالى لضيّق عليكم وشدّد بتحريم المخالطة[6] وآثمكم فى مخالطتهم كما فعل بمن كان قبلكم[7]إنّ الله سبحانه وتعالى عزيز فى ملكه غالب على أمره وحكيم فى صنعه .

---

(١) تفسير القرطبي ص ٨٧٠ .
(٢) تفسير القرطبي ص ٨٧٤ والكشاف ١/٢٧٣ والبحر المحيط ٢/١٥٥ .
(٣) تفسير القرطبي ص ٨٧٤ .
(٤) سورة الحجرات : ١٠ .
(٥) الآيـة : ٦ .
(٦) الجـلالين .
(٧) تفسير القرطبي ص ٨٧٤ .

﴿٢٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

المناسبة :

لمّا إذِن الله سبحانه وتعالى فى مخالطة الأيتام ومخالطة النّكاح بيّن أنّ مناكحة المشركين لا تصحّ(١) .

بين يدى الآية :

من العلماء من ذهب إلى كون لفظة الأمة فى الآية الكريمة تعنى الجارية المملوكة ولفظة العبد تعني المملوك . ومن العلماء من ذهب إلى كون لفظة الأَمَة تَعْنى المرأة ، والعبد تعنى الرجل . يقول القرطبي مثلاً(٢) : وقيل المعنى : ولرجلٌ مؤمنٌ وكذا ولأمة مؤمنة . أي ولا مرأة مؤمنة كما بيّناه . قال ﷺ : كلّ رجالكم عبيدُ الله . وكلُّ نسائكم إماءُ الله . وقال : لاتمنعوا إماء الله مساجد الله . وقال تعالى(٣) : « نعم العبد إنّه أوّاب » وهذا أحسن ما حُمِل عليه القول فى هذه الآية ، وبه يرتفع النّزاع ويزول الخلاف ، والله الموفق » .

سبب النزول :

قال مقاتل : نزلت هذه الآية فى أبي مِرْثد الغَنَوِىّ . وقيل : فى مِرْثد بن أبي مِرْثد ، واسمه كنّاز بن حُصَيْن الغنويّ ، بعثه رسول الله ﷺ مكّة سِرّاً ليُخْرجَ رجلاً من أصحابه . وكانت له بمكّة امرأة يحبّها فى الجاهلية يقال لها عَنَاق . فجاءته فقال لها : إنّ

---

(١) تفسير القرطبي ص ٨٧٥ وانظر البحر المحيط ٢/١٦٣ فثمة اجتهاد لطيف .

(٢) تفسير القرطبي ص ٨٨٨ وانظر البحر المحيط ٢ / ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٣) سورة ص : ٣٠ .

الإسلام حرّم ما كان فى الجاهليّة. قالت: فتزوّجني قال: حتّى أستأذن رسول الله ﷺ. فأتى النّبيّ ﷺ فاستأذنه فنهاه عن التّزوّج بها لأنه كان مسلماً وهي مشركة[1] وواضح أن هذا السبب مقترن بقوله تعالى : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن » .

وإنَّ ثّمة سبباً آخر متعلقاً على جهة الخصوص بقوله تعالى : « ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم » . نزلت فى خنساء وليدة سوداء كانت لحذيفة بن اليمان . فقال لها حذيفة : ياخسناء قدُ ذكِرْتِ فى الملأ الأعلى مع سوادك ودمامتك ، وأنزل الله تعالى ذكرك فى كتابه . فأعتقها حذيفة وتزوّجها . وقال السّدّى : نزلت فى عبدالله بن رواحة ، كانت له أمة سوداء فلطمها فى غضب ثمّ ندم . فأتى النّبيّ ﷺ فأخبره فقال : ما هى يا عبدالله : قال : تصوم وتصلّي وتحسن الوضوء وتشهد الشّهادتسن . فقال رسول الله ﷺ : هذه مؤمنة . فقال ابن رواحة : لأُعْتِقَنَّها ولأتزوّجنهّا ففعل . فطعن عليه ناس من المسلمين وقالوا : نكح أَمَةً . وكانوا يريدون أن يَنْكحوا إلى المشركين . وكانوا يُنكحونهم رغبةً فى أحسابهم فنزلت هذه الآية . والله أعلم[2] .

فى هذه الآية الكريمة ينهى ربّ العزّة المسلمين المؤمنين المتّقين عن نكاح المشركات ، ولا يدخل تحت النهى اليهوديات والنصرانيات فانّهنّ من أهل الكتاب . فإذا آمنت المشركة حلّ للمسلم نكاحها . وتفضّل الآية الكريمة المرأة المؤمنة على المشركة وإنْ كانت الأخيرة ذات جمال وحسب ونسب ومالٍ وجاه . فالمصطفى ﷺ وقد بيّن الأسباب التي تنكح من أجلها المرأة المؤمنة من جمال وحسب ومال ودين قال : فاظفر بذات الدين تربت يداك[3] فكيف بالمرأة إذا لم تكن مؤمنة . إنّ نكاح المشركين منهيّ عنه . وبشأن اليهودية والنصرانية يقول القرطبي[4] : « ونكاح اليهوديّة والنصرانيّة وإن كان قد أحلّه الله تعالى مستثقل مذموم » .

---

(١) تفسير القرطبي ص ٨٧٥ وانظر الكشاف ١/٢٧٣ والبحر المحيط ٢/١٦٣ .
(٢) تفسير القرطبي ص ٨٧٧ وانظر البحر المحيط ٢ / ١٦٣ .
(٣) الحديث فى الصحيحين انظر تفسير ابن كثير ١ / ٢٥٨ .
(٤) تفسير القرطبي ص ٨٧٥ .

وأجمعت الأمّة على أن المشرك لا يطأ المؤمنة بوجه ، لما فى ذلك من الغضاضة على الإسلام(١) وفى هذه الآية دليل بالنّصّ على أن لانكاح إلا بوليّ(٢) والوصيّ مقدّم فى إنكاح الأيتام على الأولياء وهو خليفة الأب ووكيله ، فأشبه حاله لو كان الأب حيّا(٣) .

كما فضّلت الآية الكريمة المرأة المؤمنة على المرأة المشركة فضّلت الّرجل المؤمن على الرّجل المشرك ولو أعجبنا جماله وماله وحسبه .

والحكمة من هذا التفضيل وذلك النهى فى قوله تعالى : « أولئك يدعون إلى النّار والله يدعو إلى الجنّة والمغفرة بإذنه » .

فأولئك المشركون والمشركات يدعون إلى الأعمال الموجبة للنار والمؤدّية إليه « فإنّ صحبتهم ومعاشرتهم توجب الانحطاط فى كثيرٍ من هواهم مع تربيتهم النّسل »(٤) والله سبحانه وتعالى يدعو إلى عمل أهل الجنة وإلى استغفاره جل وعلا والتوبة إليه توبة نصوحاً بأمره(٥) وبإرادته فتجب إجابته بتزويج أوليائه(٦) وتقدّم ذكر الجنّة هنا على المغفرة لتحسن المقابلة فإنّ قبله . أولئك يدعون إلى النّار(٧) .

وتختم الآية الكريمة بتقرير حقيقة كونه جلّ وعلا يبين آياته للناس لعلهم يتذكرون .

---

(١) تفسير القرطبي ص ٨٨٠ والبحر المحيط ٢ / ١٦٥ .
(٢) تفسير القرطبي ص ٨٨٠ والبحر المحيط ٢ / ١٦٥ .
(٣) تفسير القرطبي ص ٨٨٥ .
(٤) تفسير القرطبي ص ٨٨٨ .
(٥) انظر تفسير القرطبي ص ٨٨٨ .
(٦) الجلالين .
(٧) البحر المحيط ٢ / ١٦٦ .

﴿٢٢٢﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ

فى صحيح مسلم عن أَنَس أنّ اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهن فى البيوت . فسأل اصحاب النّبيّ ﷺ النّبيّ ﷺ فأنزل الله تعالى : « ويسألونك عن المحيض قل هو أذًى فاعتزلوا النّساء فى المحيض » إلى آخر الآية . فقال النّبيّ ﷺ : اصنعوا كلَّ شيءٍ إلاّ النّكاح . فبلغ ذلك اليهود فقالوا : مايريد هذا الرّجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلاّ خالفنا فيه . فجاء أُسَيْد بنُ الحُضَيْر وعبّاد بن بشر فقالا : يا رسول الله إنَّ اليهود تقول كذا وكذا أفلا نجامعهن ؟ فتغيّر وجه رسول الله ﷺ حتى ظننّا أنَه وجد(١) عليهما . فخرجا فاستقبلهما هديّة من لبنٍ إلى رسول الله ﷺ فأرسل فى آثارهما فسقاهما ، فعرفا أنّه لم يِجَدْ عليهما . قال علماؤنا : كانت اليهود والمجوس تجتنب الحائض . وكانت النّصارى يجامعون الحيّض . فأمر الله بالقصد بين هذين(٢) .

المحيض : الحيض . وهو مصدر . يقال : حاضت المرأة حَيْضاً ومحاضاً ومحيضاً فهي حائض وحائضة أيضاً عن الفرّاء ... وقيل : المحيض عبارة عن الزّمان والمكان وعن الحيض نفسه . وأصله فى الزّمان والمكان ، مجاز فى الحيض(٣) وأصل الكلمة من السَّيلان والانفجار . يقال : حاض السّيل وفاض . وحاضت الشّجرة أى سألت رطوبتها ، ومنه الحيض ، أى الحوض ، لأنّ الماء يحيض إليه أي يسيل . والعرب تدخل الواو على الياء والياء على الواو لأنهما من حيّزٍ واحد(٤) .

---

(١) وجد : عضب .

(٢) تفسير القرطبي ص ٨٨٩ وانظر الكشّاف ١ / ٢٧٤ والبحر المحيط ٢ / ١٦٦ وتفسير ابن كثير ١/ ٢٥٨ .

(٣) تفسير القرطبي ص ٨٨٩ .

(٤) تفسير القرطبي ص ٨٩٠ وانظر البحر المحيط ٢ / ١٥٦ .

قل هو أذى : أى هو شيء تتأذّى به المرأة وغيرها أى برائحة دم الحيض . والأذى كناية عن القذر على الجملة[1] .

فاعتزلوا النّساء فى المحيض . فاعتزلوا النساء : اتركوا وطأهنّ[2] فى المحيض أى فى زمن المحيض إنْ حملت المحيض على المصدر ، أو فى محلّ الحيض إن حَمَلْتَهُ على الاسم . ومقصود هذا النّهي ترك المجامعة[3] عن مسروق قال : سألت عائشة : ما يحلّ لي من أمرأتى وهى حائض ؟ فقالت : كلُّ شيءٍ إلاّ الفرج[4] .

واختلفوا فى الّذى يأتى امرأته وهي حائض ماذا عليه . فقال مالك والّشافعي وأبو حنيفة : يستغفر الله ولا شيء عليه . وهو قول ربيعة ويحيى بن سعيد . وبه قال داود ... وقال أحمد : يتصدّق بدينار أو نصف دينار[5] .

ولا تقربوهنّ : بالجماع[6] حتّى يطهرن : الخلاف فى الطّهر ما هو . فقال قومٌ : هو الاغتسال بالماء . وقال قوم : هو وضوء كوضوء الصّلاة . وقال قوم : هو غسل الفرج . وذلك يُحِلُّها لزوجها وإنْ لم تغتسل من الحيضة[7] ويقول ابن كثير[8] « حتى يطهرن من الدّم فإذا تطهّرن أى بالماء وكذا قال مجاهد وعكرمة والحسن ومقاتل ابن حيان واللّيث بن سعد وغيرهم » .

فإذا تطهّرن يعنى بالماء . وإليه ذهب مالك وجمهور العلماء ، وأنّ الطهر الذى يحلّ به جماع الحائض التّي يذهب عنها الدّم هو تطهّرها بالماء كطهور الجنب . ولا يُجْزىء من ذلل تيممٌ ولا غيره . وبه قال مالك والشافعيّ والطبريّ ومحمد بن مسلمة وأهل المدينة وغيرهم[9] .

---

(١) تفسير القرطبي ص ٨٩٣ .
(٢) الجلالين .
(٣) تفسير القرطبي ص ٨٩٤ .
(٤) تفسير القرطبي ص ٨٩٥ .
(٥) تفسير القرطبي ص ٨٩٥ وانظر تفسير ابن كثير ١ / ٢٥٩ .
(٦) الجلالين .
(٧) تفسير القرطبي ص ٨٩٦ .
(٨) ١ / ٢٦٠ .
(٩) تفسير القرطبي ص ٨٩٦ .

وصفة غسل الحائض صفة غسلها من الجنابة[1] .

فأتوهنّ من حيث أمركم الله ، أي فجامعوهنّ وهو أمر إباحة . وكَنَى بالإتيان عن الوطء[2] ومِنْ بمعنى فى أيّ فى حيث أمركم الله وهو القُبُل . ونظيره قوله تعالى : أروني ماذا خلقوا من الأرض ، أى فى الأرض . وقوله : إذا نودي للصّلاة من يوم الجمعة ، أى فى يوم الجمعة . وقيل المعنى أى من الوجه الذى أُذِن لكم فيه[3] .

إنّ الله يحبّ التّوّابين : من الذنوب . ويحبّ المتطهّرين من الأقذار[4] فإن قيل : قدّم بالذّكر الّذى أذنب على الّذى لم يذنب قيل : قدّمه لئلاّ يَقْنَطَ التّائب من الرّحمة ولا يعجب المتطهّر بنفسه . كما ذكر فى آية أخرى[5] : فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنه سابق بالخيرات[6] .

ومناسبة هذه الآية لما قبلها هو أنّه لمّا نهى عن مناكحة الكفّار وتضمّن مناكحة أهل الإيمان وإيثار ذلك ، بيّن حكماً عظيماً من أحكام النّكاح ، وهو حكم النّكاح فى زمان الحيض[7] .

---

(١) تفسير القرطبي ص ٨٩٨ .
(٢) تفسير القرطبي ص ٨٩٨ .
(٣) تفسير القرطبي ص ٨٩٨ وانظر الكشاف ١ / ٢٧٤ والبحر المحيط ٢ / ١٦٩ .
(٤) الجـــلالين .
(٥) سـورة فاطر : ٣٢ .
(٦) تفسير القرطبي ص ٨٩٩ .
(٧) البحر المحيط ٢ / ١٦٧ .

﴿٢٢٣﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ

سبب النزل :

قوله تعالى : نساؤكم حرث لكم . روَى الأئِمّة واللّفظ لمسلم عن جابر بن عبد الله قال : كانت اليهود تقول : إذا أتى الرّجلُ امرأته من دبرها فى قُبُلها كان الولد أحول فنزلت الآية(١) وجاء فى تفسير ابن كثير(٢) : « قال أبو داود ... عن مجاهد عن ابن عبّاس قال : إنّ ابن عمر – والله يغفر له – أوهم ، وإنّما كان هذا الحيّ من الأنصار وهم أهل وثن ، مع هذا الحي من يهود ، وهم أهل كتاب . وكانوا يرون لهم فضلاً عليهم فى العلم فكانوا يقتدون كثيراً من فعلهم . وكان من أمر أهل الكتاب لا يأتون النساء إلاّ على حَرْف(٣) وذلك أستر ما تكون المرأة . فكان هذا الحيّ من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم . وكان هذا الحيّ من قريش يشرحون النّساء شَرْحاً(٤) منكراً ، ويتلذّذون بهنّ مقبلات ومدبرات ومستلقيات . فلمّا قدم المهاجرون المدينة تزوّج رجل منهم امرأةً من الأنصار ، فذهب يصنع بها ذلك فأنكرته عليه وقالت : إنّما كنّا نؤتى على حرف فاصنع ذلك وإلا فاجتنبني فسرى أمرهما ، فبلغ رسول الله ﷺ فأنزل الله : نساؤكم حرثٌ لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم . أى مقبلاتٍ ومدبرات ومستلقيات يعنى بذلك موضع الولد . تفرّد به أبو داود . ويشهد له بالصّحّة ما تقدّم له من الاحاديث ولا سيما رواية أم سلمة فإنها مشابهة لهذا السياق » ويعلّق ابن كثير(٥) بقوله : « وقول ابن عباس إنّ ابن عمر والله يغفر له أوهم وكأنّه يشير إلى ما رواه البخاريّ حدّثنا إسحاق حدثنا النّضر بن شُمَيْل أخبرنا ابن عون عن نافع قال : كان ابن عمر إذا قرأ القرآن لم يتكلّم حتى يفرغ منه ، فأخذت عنه يوماً فقرأ سورة البقرة حتّى انتهى إلى مكان قال : أتدرى فيم أنزلت ؟ قلت : لا . قال : أنزلت فى كذا وكذا ثم مضى » .

---

(١) تفسير القرطبي ص ٨٩٩ . (٢) ١ / ٢٦١ .

(٣) جاء ص ٢٦٢ : « وكانت نساء الأنصار قد أخذن بحال اليهود إنّما يؤتين على جنوبهن » .

(٤) جاء فى القاموس : « شرح كَمَنَعَ كشف ... والبِكْرُ افتضّها أو جامعها مستلقية » .

(٥) تفسير ابن كثير ١ / ٢٦١ .

مناسبة الآية الكريمة :

يقول الزمخشرى[1] : فإنْ قلت : ما موقع قوله : نساؤكم حرث لكم ممّا قبله ؟ قلت موقعه موقع البيان والتوضيح لقوله : فأتوهنّ من حيث أمركم الله . يعنى أنّ المأتى الّذى أمركم الله به هو مكان الحرث ترجمةً له وتفسيراً وإزالةً للشبهة ودلالةً على أنّ الغرض الأصيل فى الإتيان هو طلب النّسل لا قضاء الشّهوة ، فلا تأتوهنّ إلاّ من المأتى الّذى يتعلّق به هذا الغرض » . ويقول أبو حيّان[2] : « وإذا كانوا قد منعوا من وطء الحائض ، لما اشتمل عليه محلّ الوطء من الأذى بدم الحيض ، فلأن يمنعوا من المحلّ الّذى هو أكثر أذى أولى وأحرى » .

يبين ربّ العزّة أنّ نساءنا حرث لنا ، بمعنى المُحْترث لنا[3] وموضع حرثنا . وهذا مجاز شبّههنّ بالمحارث تشبيهاً لما يلقى فى أرحامهن من النّطف التي منها النّسل بالبذور[4] إنّه بعد أن أمرنا الله تعالى أن نأتي النّساء من حيث أمرنا جل وعلا ، بيّنت الآية الكريمة أنّ المكان الذى نأتى منه نساءنا بمثابة موضع الحرث ، وعليه فالنّطفة بمثابة البذور . والذرّيّة بمثابة الزرع . وقد جاء فى سورة الواقعة[5] قوله تعالى : « أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون » .

ومن حقّ الزوج أن يأتى زوجته كيف شاء ومن أين شاء ، فهذا هو معنى أنىَّ عند سيبويه[6] قال تعالى : « فأتوا حرثكم أنّى شئتم » معناه عند الجمهور من الصّحابة والتّابعين وأئمة الفتوى : من أيّ وجه شئتم مقبلةً ومدبرة »[7] .

وتأمر الآية الكريمة المؤمنين بأن يقدّموا لأنفسهم . دون أن تعيّن هذا الشىء الذى ينبغي تقديمه . وقد جاء تعيين هذا المقّدم فى مثل قوله تعالى[8] : وما تقدّموا لأنفسكم

---

(١) الكشاف ١ / ٢٧٥ .
(٢) البحر المحيط ٢ / ١٧٤
(٣) تفسير القرطبي ص ٩٠١ .
(٤) الكشاف ١ / ٢٧٤ .
(٥) سورة الواقعة : ٦٣ ، ٦٤
(٦) تفسير القرطبي ص ٩٠١ .
(٧) تفسير القرطبي ص ٩٠١ .
(٨) سورة المزمل : ٢٠

من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم جراً « ومن هذا الخير الذى يقدمه من يأتى أهله مثلا ما ثبت فى صحيح البخارى[1] ومسلم[2] « عن ابن عبّاس قال : قال ﷺ : لو أنّ أحدكم إذا أراد أن يأتى أهله قال : بسم الله اللّهمّ جنّبنا الشّيطان وجنّب الشّيطان ما رزقتنا فإنّه ان تُقَدَّم بينهما ولد فى ذلك لم يضرّه السيطان أبداء[3] وممّا يقدّمه كذلك ابتغاء الولد والنّسل ، لأنّ الولد خير الدّنيا والآخرة . فقد يكون شفيعاً وجُنّة[4] .

والآية الكريمة تأمر المؤمنين بأن يتقوا الله تعالى ، بألا يتجاوزوا مثلا المكان الذى أمرهم الله تعالى أن يأتوا منه نساءهم ، وتحذّرهم بضرورة العلم بكونهم سيلاقون الله تعالى يوم القيامة . فينبغى أن يعملوا وفق هذا العلم . وفى الوقت ذاته هي تبشّر المؤمنين الذين يطيعون الله تعالى ولا يعصونه ويفعلون ما يؤمرون .

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٢٦٥ .
(٢) تفسير القرطبي ص ٩٠٤ .
(٣) تفسير ابن كثير ١ / ٢٦٥ وانظر تفسير القرطبي ص ٩٠٤ .
(٤) تفسير القرطبي ص ٩٠٤ .